أشعيا نبيٌّ حكمة الله وبشيرُ الخلاص

الأب أيوب شهوان

أشعيا أمير الشعراء

تميّز سفر أشعيا بين سائر أسفار الأنبياء بفرادته الأدبية الشعرية، من جهة، وبمضمونه الرفيع، من جهة ثانية، مع التأكيد على أنه مرتبط بمن سبقه أو عاصره من الأنبياء العظماء. كمّيّةُ الفصول المنسوبة إليه تفوق نبوءات أيِّ نبيٍّ آخر، إذ إنها الأطول بين كل النبوءات؛ هذا الأمر عائد إلى تراكم الأجزاء الثلاثة التي تكوّن السِّفر، والتي تنتمي إلى عدّة عصور. من المتفق عليه أن سفر أشعيا مؤلَّفٌ من ثلاثة أجزاء: ١-٣٩؛ ٤٠-٥٥؛ ٥٦-٦٦؛ سنعالج في هذا العدد مواضيع مختارة من أشعيا الأول، وبالتحديد الفصول ١-١٢ العائدة إلى القرن الثامن ق. م.

ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الفصول الاثني عشر تتضمن أجمل اللوحات التي أبدعها أمير شعراء العهد القديم، خاصة نشيد الكرمة (ف ٥)، ورواية دعوته (ف ٦)، وكتاب العمانوئيل (ف ٧ و٩ و١١).

ارتباط أشعيا بواقعه

من المتعارف عليه علميّا أنه من غير الممكن قراءة النصوص البيبلية وتفسيرها من دون وضعها في إطارها التاريخي والأدبي والفكري؛ لذا سيتضمن هذا العدد مقالات تعالج الحقبة التاريخية التي تنتمي إليها الفصول ١-١٢، والتي لعبت الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية دورًا حاسمًا في دفع أشعيا إلى كتابتها.

ومن الواضح بالنسبة إلينا أن معالجة مواضيع الفصول التي نحن بصددها لها مرامٍ علميّة أولاً، ولاهوتيّة ثانيًا، وروحيّة رعائيّة ثالثًا؛ لذا يجد محرِّرو مواضيع مجلة بيبليا أنفسهم مضطَّرين للغوص في أمور علميّة بحتة قد لا تستهوي القارئ العادي الباحث عن مغزى روحي، كما أنّ المواضيع ذات الطابع اللاهوتي أو الروحي أو الرعائي، قد لا تستهوي القارئَ العالِمَ والباحثَ المعتادَ على إيلاء المسائل العلمية التقنية البحتة أولى اهتماماته. لذلك، نرجو أن يكون تنوّع المواضيع في التوجُّهين مقبولاً لدى هذا وذاك من القراء.

من الأمور التي كان أشعيا يسعى إلى القضاء عليها هي قساوة قلب بني إسرائيل وتصلّبهم غير المبرّر في المواقف؛ من هنا، وتماشيًا مع رسالة النبي، كم نودّ أن نرى القراء الكرام يولون الليونة والحزم في المواقف انتباههم واعتناءهم واهتمامهم؛ بمعنى آخر، سيكون مفيداً للجميع، قارئين وباحثين، علماء ولاهوتيين، روحانيين وراعويين، أن يشرّعوا أبوابهم لقبول الآخرين، فيكتمل بنيان الجسد، كما يعلّم القديس بولس، إذ لا يمكن لليد أن تستغني عن الرجل، ولا للجسد عن الرأس، الخ. المهمّ أن يكون الجميع "رسالة المسيح المكتوبة"، "لا بالمداد ولا على الحجر، بل على قلوب من لحم ودم". كل ما يُكتَب أو يُقال إذاً يتحوّل إلى بُشرى، أقلّه مبدئيًّا، وإلاّ، كما يقول اللاهوتي كارل راهنر، يصبح عملنا البيبلي "أرسطوقراطيةً فكرية" وحسب!

أشعيا بشير الخلاص

إن ما يسعى إليه أشعيا النبي عبر نبوءاته الملهمة، هو الخلاص، خلاص بني إسرائيل، ثم خلاص الجميع. في هذا السياق نقول: إنّ

"رؤية مجد الله" هي عامل أساسي في تحقيق هذا الخلاص، هكذا سيؤمن الذين، عند أقدام الصليب، كانوا يحدّقون في وجه يسوع، ومن هذا التحديق بالذات، سيتولد الإيمان، والإيمان ينشىء الخلاص. إن كل من شارك أشعيا في رؤية مجد الله، سيكون بالطبع "ولداً عجيبًا، رئيس السلام مشيراً، جباراً، يزرع الحق والعدل والسلام". إنني أؤمن أنّ العامل في حقل الكتاب المقدس، بحثًا وتبشيراً، هو بالتأكيد من أولئك الذين يرون مجد الله، لذا يخبرون به، لكن كلٌّ كما أُوتِيَ أن يفعل.

أشعيا النبيّ رجل حكمة وقداسة

لأن كثيرين لهم عيون ولا يرون، فلا يميّزون، ولأنّهم من جرّاء ذلك قد يَنْحَون باتجاه هدرِ طاقاتهم الفكرية والجسدية والمادية، وينحطّون بالنتيجة إلى أعماق الهاوية الرهيبة التي لا تُبقي للحياةِ أيَّ فرصةٍ للإفلات منها، ولأنّ الخالقَ لا يمكنه أن يخالفَ ما اعتاد عليه من مسارعةٍ –ولو بدت في عيوننا بطيئة– إلى الانتشال بيده القوية التي تصوغ الأمل من جديدٍ بأصابع خلاّقةٍ مُبدعةٍ، كما في أوّل مرّة، فإنّ ربّ الحياة يوفدُ النبيّ تلو الآخَر ليخلّص من الهلاك ويخلق من جديد، ودائمًا على صورته ومثاله.

يشقّ بالتأكيد على الله أن يرى صنع يديه وفلذة كبده، إن جاز التعبير، القادرَ أساسًا على أن يميّز وينتقي ويختار، يتهاوى ويسقط في حبائل الجهل ويضحي قابعًا في غياهب الظلمة عدوّة الحياة. لا، لن يكون لائقًا بالإنسان أن يقبع في طلاقٍ مع المعرفة والحكمة. لذا كان الأنبياء، حكماء الله وقدّيسوه، الذين بهم وعلى يدهم ينهال الله على السائرين في الظلمة وظلال الموت بالآيات والمعجزات، بالتهديد والوعيد، يحطّم بها عجولاً من ذهب صنعوها هم، وأمامها خرّوا وانحنوا وسجدوا، ولها قدّموا الحماقة هدية، والقباحة قربانًا، والجنون طريقًا! فمن رأى وآمن، تابَ وآبَ، وغدا بصيرًا منوَّرًا، آمنًا ووديعًا، فيطمئنّ العليُّ ويخلد إلى الراحة كما في اليوم السابع من أيام الخلق، لأنّ الحبيب المجبول بيديه القدّوستين، قطّع القيود وارتقى، وعلا وسما، فكان اللقاء، وكانت الفرحة في السماء بتوبة خاطىء أكثر من كثيرين أصحّاء.

لقد استحقّ جوق الأنبياء أبدًا، وعلى رأسهم أشعيا، لمسة حنان مِمَّن وضع على أعناقهم نيرَه الطيّب، وتَرْبيتًا على الكتف، وهمسةَ شكر وامتنان في ذات الأذن التي كانت قد تلقّت في البدء همسةَ دعوةٍ إلى الانطلاق إلى حيث يشاء المُرْسِلُ. فبحكمتهم التي غرسها الرب وأنماها في كيانهم، حكّموا فاقديّ اللُبّ، وجعلوا الألباب تخفق في الصدور، فتتدفّق فيهم الحياة غزيرةً كمراحم الله الذي يجود بلا حدود.

هكذا هو أشعيا الحكيم والقديس! فلقد اختصر في شخصه وفي رسالته، في مواقفه وفي أقواله، خطط الله ومراميه، فنقلها نبوءات ضجّت بالنداءات والصرخات، بالإنذار الحازم والوعيد المخيف، ولكن أيضًا بالوعد والتشجيع، بالحضّ والحثّ، والمطلوب واحد: العَوْدُ إلى الله!

غضب أشعيا والأنبياء

عندما نجول في رحاب نبوءات أشعيا، الأديب العبقري، والشاعر المبدع، مَن استهوته قداسةُ الله فهامَ بها، ومَن بَهَرَهُ جلالُ الله فسجد وخشع، ومَن ملأه مجدُ الله في هيكله فتكدّس فيه نعمةً فوق نعمة، ومَن قَبِلَ إثرها أن يحملَ النيرَ ليضحي الحارثَ المجاهدَ في أرضٍ قاسية قاحلة لم تكن تنبت سوى حسكٍ وشوكٍ، إذ قد امتنعت عن إروائها الأنهارُ الأربعة التي إليها كان الخالق قد حوّلها في البدء لتنمو الحياة وتتكاثر، فإننا ندرك لِمَ الأنبياء يحزنون فيغضبون، يثورون فيعصفون، وفي عيون عظماء هذا الدهر وقحون هم وجسورون! لكن ما العمل عندما يغدو الشعب المدعوّ إلى القداسة في حلفٍ مع النجاسة والرجاسة، مع المعصية والإثم، مع الخيانة والنكران، إلى حدّ أنه يضحى شعبًا نَكِرَةً؟!

في الفصول الأحد عشر الأولى، يطرح أشعيا القضية التي من أجلها ألقى الله على منكبيه المسؤولية النبوية، تلك القضية التي بسببها أطلق التهديدات وأصدر الأحكام، مشبّهًا شعب الله بالكرمة التي، بالرغم من أنّ ربَّ الكرم كان سخيًّا عليها، لم تسوِّ سوى الحصرم بدل العنب الذي انتظره وتوقّعه. وفيها أيضًا، بشّر النبيُّ برجاءٍ أكيد القابعين في الظلمة وظلال الموت، رائده "عمانوئيل" رئيس السلام، الذي سيجري الحكم والعدل، وينشر الأمان والاطمئنان، ويأتي بالبركات معطية الحياة.

وتبقى كلمة الله فوق الإدراك

هذه الموضوعات الرائعة بمضمونها وبأسلوبها الأدبي هي مادة هذا الإصدار من مجلة بيبليا، لكنها تبقى بالطبع بحاجة إلى دراسات أوسع في مؤلفات أكبر. ما ترمي إليه معالجةٌ من هذا النوع هو إعطاء المطلوب الضروري لفهم نصٍّ من النصوص، من جهة، وفتح آفاق للتحليل والتفكير والاستنتاج، من جهة أخرى. يبقى أن كلمة الله في أشعيا وفي سائر أسفار الكتاب المقدس هي أبدًا فوق إدراكنا البشري، فلن يمكننا أن نخضعها لتفاسيرنا مهما عمقت وسمت، بل نخضع نحن لما تقوله هي لنا.